

جزاء التسامح !!

لم يكن من كبار الأغنياء ، ولا من الموسرين الذين لهم مدخر من المال ، وإنما كان تاجراً وسطاً ، ليس بالغنى ولا بالفقر ، ينال ربحه في سهولة لا تكلف معها ، ولا ينظر إلى الدنيا نظرة البخيل أو الشحيح إليها فيمتدح منها فرصة لجمع المال وتكديسه ، والتمتع برنين فضته وذهبه ، وبريق نضاره وورقه ، ثم يقبض كفه عن البسط ، ويغل يده إلى عنقه ، فلا ينفق ولا يحسن ، ولا يوجد ولا يتصدق ، بل يظل خفيرا على ما يجمع حارسا على مافي خزائنه ..

لم يكن من هذا النوع الذي يعيش لنفسه فقط ، ولا يعيش لغيره أبداً وإنما كان تاجراً صادقاً ، لا يغش ولا يكذب ، سهلاً متسامحاً ، فهو لا يتعنت إذا اشترى ، ولا يطمع إذا باع ، وإنما يكتفي بالربح القليل ، بحيث لا يتقل على المشتري ولو كان معسراً ..

وكان يرى في ذلك تعاوناً مع الناس وجلباً للحياة والحركة والنشاط ، فما دام هناك تساهل وتسامح ، وجدت الثقة بين البائع والمشتري ، ووجد الحب الوثيق ، الذي هو أصل كل خير ، ومنبع كل إصلاح ، ومدعاة للتعاطف والود ، فما أمس هذه الأمور المسادية بشغاف القلوب ، وأكبر

وكان ينتقم على الذين لا يبيعون إلا بضمن عاجل ، ويرى فيهم إنسانية ناقصة ، طغت عليها المادية الآثمة ، وحرمت من الروحانية السامية التي تنظر إلى حميد الصفات ، وكامل الخلق ، وجميل العادات ، بجانب النفع المادى ، والربح الشخصى ، فليست الحياة مالاً ومتاعاً ، وربحاً وفيراً ، ثم لا شىء بعد هذا . .

وأحبه الفقراء والأغنياء ، المعسرون والموسرون ، كل يجد في معاملته سهولة ويسراً ، وتسامحاً ورفقاً ، أما الموسر فلا يثقل عليه بالربح الكثير بحيث يتضرر من الساعة ولا يجد فيها فائدة ، بل يعامله بالحسنى ، ويأخذ منه من الربح ما تجود به نفسه ، ولا يجد فيه إثقالاً عليه ، أو حرجاً في دفعه . .

وأما الفقير فكان حبيبه وخليله ، لا يرد له طلباً ، ولا يمنعه ما يريد ، فإذا كان معه الثمن فيها ونعمت ، وإلا فإنه ينظره ولا يطالبه بضمن ما أخذ ، حتى يفرج الله كربته ، ويمحو عسره ، ويكشف ضره وشدة ، فإذا عجز عن دفع الثمن بعد الإِنْظار والتأجيل ، تجاوز عنه ، ولم يطالبه بحال من الأحوال . .

يا لله ! لقد كان هذا التاجر الأمين ، بمثابة ملك في الأرض يفرج كرب الناس ، ويأخذ بيدهم في الشدة ، ويعاونهم في الضيق ، لينظروا إلى الحياة نظرة سهلة جميلة ، لا صعوبة فيها ولا مشقة ولا قبح ، ومع هذا كله ، كان يربح ويكسب ، وكان يحيا حياة جميلة ، وكان لا يخسر كما يخسر غيره من

التجار ، الذين ابتلاهم الله بالجشع والطمع ، وسلط عليهم البطر والأشر ،
فهم لا يكتفون بالربح الحلال ، بل يبالغون فيه ، إلى حد يخيّل للمشتري
أنهم أعداؤه ، يريدون الإضرار به ، وسلب ما معه من مال . .

* * *

كان هذا التاجر الأمين ، يخشى الله حق خشيته ، ويتقيه حق تقاته
ويرى في عملائه وزبائنه أحبّاء له لا أعداء ، وأن التجارة تعاون حبيب ،
وأنه في حاجة إليهم ، كما أنهم في حاجة إليه ، فلا يمكن أن يستقر الأمر
لتاجر بدون زبائن وعملاء ، ولا يمكن كذلك أن يستقر الأمر لعملاء
وخرقاء بدون تاجر . . هو في حاجة إليهم لبيع لهم ، ويربح منهم ، فإذا
كان بينهم المعسر الذي لا يجد ، فيجب أن يساعده حتى يجد ، وإذا كان
بينهم الموسر الذي يجد فيجب أن لا يتشدد معه . .

وهكذا جعل الله الناس إخوانا متعاونين ، فإذا وجد هذا التعاون
سعدوا ، وإذا عدم هلكوا ، وحلت بينهم العداوة والبغضاء ، وتمنى بعضهم
زوال نعمة بعض ، وشملهم الحسد المقيت ، وسرعان ما تذهب ريحهم ،
وتضعف شوكتهم ، ثم لا يكون لهم بعد ذلك شأن يذكر ، ولا رأى
محترم .

المال مال الله ، ولقد أنعم الله عليه بالكثير منه ، بالنسبة لغيره من
المعدمين الفقراء ، فما الداعي لأن يتفرد هو بالعظمة واليسر ، ويترك غيره

وبهذه الروح السامية ، قابل هذا التاجر الحياة ، وهو بها سعيد ، سعيد بحب الناس له ، وبحبه للناس ، وهو يعتقد أن الله البارئ الأعظم ، عن عمله من الراضين ، وما أسعده بهذا الإحساس ، وذلك الشعور الذى سيطر عليه ، وتملك عواطفه ، ودفعه إلى هذه الخطوة الفريدة فى معاملة الناس . .

ومن عجب أنه لم يلق شدة طول حياته ، ولم يقع فى مكروه ، ولا ضرر يخشاه ، وأن أعنف المشاكل التى تثقل بكواهل الناس ، كان ينظر إليها نظره إلى شئ محبوب لا صعوبة فيه ولا عسر ، وما كان أسرع انفراجه ، وزوال ما فيه من ضيق . .

وما دام يشعر بهذا الشعور ، ويحس بذلك الإحساس ، فى حياته الدنيا ، فإن الله سبحانه سيكفيه شدته وضيقه ، وكرهه فى الآخرة ، ولن يدعه لنفسه أبداً ، واستولت عليه هذه الثقة العظيمة بالله سبحانه ، حتى كانت فى موضع العقيدة الثابتة ، والإيمان القوى . .

* * *

إذا كان يوم القيامة ، أتى بهذا الرجل المتسامح فى بيعه وشرائه ، ووقف بين يدى ربه ، حيث لا ينفع الإنسان والده ولا والدته ، ولا أقرب المقرين إليه . . لا ينفعه سوى عمله الصالح الذى قدمه فى دنياه . . أما المال والولد ، أما المنصب والجاه ، أما العقار والضياع ، فلا قيمة لهذا كله ، بجانب صدقة مقبولة ، وعمل يتوفر فيه الإخلاص ، وطاعة خالصة لله ، لم يشرك معه أحدا فيها . . وقد لا يكون لهذا قيمته الآن ، أما هناك ،

«يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» في هذا اليوم يدرك الإنسان قيمة العمل الصالح مهما كان قليلا ، فرب حسنة تكون سببا في نجاة الإنسان ، وإنقاذه من النار ، ودخوله الجنة ..

قال الله سبحانه وتعالى يخاطب هذا العبد :

— ماذا عملت في الدنيا ؟ !

فيفكر الرجل حينما ، فلا يكاد يذكر شيئا من الخير عمله ، أو معروفا قدمه ، أو إحسانا له أثر بارز في حياته .. إنه لا يذكر شيئا من هذا كله .. وإن الموقف رهيب ، وإن بدنه ليرتعد خوفا ووجلا ، وخشية من الله القاهر أن يغضب عليه ، فيأمر بذهابه إلى النار .. وظل هكذا فلم يذكر شيئا كذلك ، فقال في خوف واضطراب :

— لا .. ما أعلم شيئا من الخير عملته في الدنيا ..

— تذكر ..

وهنا تذكر الرجل شيئا ، فقال على الفور ، وكأنما انتشل من حفرة ، وأنقذ من وهدة ..

— لقد آتيتني مالا من لدنك ، فكنت أبايع الناس ، وكان من خلقي الجواز والمساخرة ، فكنت أتيسر على الموسر ، وأنظر المعسر .. كنت أترك المعسر فرصة تمتد حتى ينفرج ضيقه ، وتذهب شدته ..

وصمت الرجل ، وهو يعتقد أن هذا العمل يسير لا قيمة له ، بجانب

أمل في الله أن ينقذه ، وأن يفرج كربته ، كما أنقذ آلافا من الناس من
غضيرة محقة ، وكما فرج عن آلاف كذلك كربهم وما كان يضنيهم ويثقل
عليهم من شدائد وأهوال . . وما كان أعظم فرحه ، وأكثر سروره ،
حينما استمع إلى الله سبحانه وتعالى يقضى بإنقاذه من العذاب ، ونجاته
من العقاب :

— أنا أحق بذامنك . . تجاوزوا عن عبدى . . !!

ونجا الرجل وهو لا يكاد يصدق أنه نجا ، وسارت به الملائكة إلى دار
النعيم ، حيث يجد فيها ما أعده الله لعباده المؤمنين ، الذين أخلصوا له الطاعة
وآثروه بالعبادة ، وسامت منهم النية ، وثبت الإيمان ، فكان ضياءاً ونوراً ،
وهادياً إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم . .

وما أسعد أهله بما أعده الله لهم من نعيم ! .. وما أسعدهم كذلك

بالتمتع برؤية الله الكريم . . !!